

العناصر الأفلاطونية

والغنوصية في الحديث^(١)

لاجنتس جولد تسيهر

— ١ —

لسنا في حاجة إلى إجهاد أنفسنا في البحث كثيراً من أجل أن نسلم توأ
بامكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية في داخل هذه المادة الخصبة
الغنية التي رويت على شكل أحاديث عن النبي . بل الأحرى أن يقال إنه كان
بما يشير الدهشة والعجب حقاً ، مع ما في الاسلام من خاصية هضم العناصر
الأجنبية وتمثلها ، أن تخلو وثائق الاسلام الدينية من تأثير الأفكار التي
غزت المناطق التي امتد إليها الاسلام وانتشر فيها ، تلك الوثائق التي أخذ
أصحابها الكثير من الثروة الروحية للوسط الذي هم فيه وجعلوه على صورة
أحاديث للنبي .

وكان التصوف خصوصاً هو الذي عنى بتصوير الكثير من الأفكار
الأفلاطونية المحدثه والغنوصية في صورة إسلامية . فعن دوائر الصوفية
صدر الكثير من الأحاديث، الموضوعه ، التي قصد بها إلى تبرير قواعد هذا
الاتجاه الديني ، وهو التصوف . وإن النقاد المحققين من أهل السنة ليذكرون
أسماء بعض هؤلاء المتهمين بوضع أمثال تلك الأحاديث الصوفية^(٢) . ويأتى

(١) [ظهر هذا البحث في « مجلة الاشوريات » Z. A. المجلد الثاني والعشرون سنة ١٩٠٩

من ص ٣١٧ إلى ص ٣٤٤ بعنوان : « Neuplatonische und gnostische Elemente im »

[« Hadit »]

(٢) مثال ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي الصوفي النيسابوري (سنة ٣٣٠

— ٤١٢) ، الذي ألف أيضاً تفسيراً للقرآن عنوانه « حقائق التفسير » ، أول فيه القرآن
« تأويلات الباطنية » . والذين ترجوا له يقولون عنه إنه « كان يضع للصوفية الأحاديث »
(الذهبي : « تذكرة الحفاظ » ج ٣ ص ٢٤٩ ؛ السبكي ، « طبقات الشافعية » ج ٣ ص ٦٠)
السطر الأخير) .

بعد هؤلاء الصوفية ، ممن لا يدخلون في عدادهم ، الفلاسفة الدينيون الذين من نوع إخوان الصفا ، وهم الذين يروون عن النبي كلاماً يعبر عن آرائهم هم أنفسهم في مسائل فلسفية دينية . كما أنه كان لمذهب الاسماعيلية في هذا الميدان جولات وصولات ، وهو المذهب الذي نقل أصحابه نظريات الأفلاطونية المحدثه إلى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية الرحب الفسيح . فمن هذه الدوائر كلها صدرت ثروة ضخمة من الأحاديث صُوِّرَ النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثه والغنوصية .

وكثير من هؤلاء لم يكونوا واضعها ، وإنما هم رأوها موجودة من قبل فاستغلوها من بعد في سبيل تحقيق غاياتهم ومرامهم . وذلك أن العناصر الأجنبية كانت تأتي أيضاً إلى البيئات الإسلامية دون أن يكون بها ميل واضح إلى ناحية معينة قد قصد اليه قصداً ؛ فكان الذين يتجهون اتجاهها خاصاً يكييفونها من بعد ويجعلون لها في داخل مذاهبهم مكانة عظيمة ، لم يكن يطلب منها في الأصل أن تكون عليها بحال من الأحوال .

وأريد هنا أن أذكر ، من بين تلك الأحاديث التي تحمل هذا الطابع ، حديثاً مأخوذاً عن نظرية الصدور التي قال بها الأفلاطونيون المحدثون .

فكما أن نظرية الوسط [القائلة بأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين] التي قال بها أرسطو في الأخلاق قد صيغت في عصر متقدم على صورة حديث عن النبي ^(١) ، فإن جزءاً لا شك فيه من نظرية الصدور الأفلاطونية المحدثه قد روى باعتباره حديثاً عن النبي .

فالقول بأن العقل الكوني هو أول شيء صدر مباشرة عن الذات الإلهية يُصوَّر على النحو الآتي : « أول ما خلق الله العقل . فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر ، فأدبر . ثم قال الله عز وجل : وعزني وجلالي ،

(١) راجع كتابي « دراسات إسلامية » Muh. Studien ، ج ٢ ص ٣٩٨ .

ما خلقت مخلقاً أكرم على منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أئيب ، وبك أعاقب .

وهذا التصوير الذى لا يتفق مع تصوير القرآن لخلق الكون عددياً عن النبي . فبرى رجلاً كالغزالي ^(١) يورده باعتباره حديثاً عن النبي مع طائفة أخرى من الأحاديث التى يمجدها العقل ، نذكر من بينها مما يهمنا فى هذا المقام ، الحديث التالى أيضاً : روى أن عبد الله بن سلام سأل النبي « فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت ياربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ، قال نعم ^(٢) : العقل » . وليس من شك فى أن هذه الأحاديث إنما وضعت تحت تأثير الفكرة القائلة بأن العقل الكونى هو أول جوهر روحى صدر عن الذات الالهية ، وهى داخلية فى عداد تلك المجموعة الضخمة من الأحاديث الموضوعة فى هذا المعنى ، والتى لا بد وأن يكون قد ورد الكثير منها فى ذلك الكتاب الذى ذكره الغزالي ، ونعنى به كتاب « العقل » لداود ابن مؤبّر البصرى (المتوفى سنة ٢٠٦) ^(٣) ، وهو عبارة عن طائفة من الأحاديث الخاصة بتمجيد العقل وبيان فضائله . وهذا الكتاب قد فقد ، وكان له تاريخ خاص شائق ^(٤) .

والحديث الذى أورده آتفا ، والذى إن أمعنا النظر فيه وجدناه لا يكاد يتفق مع المعتقدات الاسلامية السائدة ، سرعان ما انتشر وحُصر على إذاعته فى البيئات الاسلامية المتحررة التى أضافت إلى الاسلام أفكاراً افلوطينية أو طبعت اسلامها بطابع افلوطينى (مثل اخوان الصفا والاسماعيلية والمتصوفة) . ولكنه لم يخترع فى هذه البيئات ، إنما هى تلقته فرحبت به

(١) « الاحياء » ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ٨٢ ، س ٢٠ (راجع أيضاً ديسو ، « تاريخ النصرانية ودينهم » ص ٥٠ (Dussaud , Hist. et relig. des Nosairis) .

(٢) الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(٣) المرتضى ، « اتحاف السادات » (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٣) ج ١٠ ، ص ٣١ .

(٤) راجع للمحقق رقم ١ ، الوجود بآخر هذا البحث .

أحرّ تر حيب ، وصادف هوى فى نفسها فحرصت عليه وتعلقت به ، وأهابت به فى كل مرة كان فيها ملائماً لنظرياتهم ، مؤيداً لمذاهبهم . أما البيئات السنية فكان طبيعياً أن تأخذه على تلك البيئات المتحررة باعتباره حديثاً موضوعاً قصد به إلى تأييد اتجاه معين^(١) . وإذا كان الغزالي قد استخدمه أيضاً ، فليس لهذا فى نظرها كبير قيمة ، لأن حجة الاسلام الكبير لم يكن ينظر اليه ، حتى من جانب من أجלוه ومجدوه^(٢) ، باعتباره ناقداً جيداً فى الحديث: فإنه كان يتقبل الأحاديث غير الموثوق بها ، من جميع المصادر والجهات ، فى شئ من التسامح كثير^(٣).

وثمة حديث آخر ذو طابع غنوصى كان حظّه من الهجوم عليه والظعن

(١) يقول ابن تيمية ، « تفسير سورة الاخلاص » (القاهرة ، طبع النعسانى ، سنة ١٣٢٣) ص ٥٨ ، بعد أن أورد مذهب الافلاونية المحدثة فى الجواهر الروحية الخالدة : « والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبید ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم كملاحدة المتصوفة مثل ابن عربى وابن سبعين ، وغيرهما ، يحتجون لئلا ذلك بالحديث الموضوع: أول ما خلق الله العقل » .

(٢) يقول السبكي فى « طبقات الشافعية » ج ٤ ص ١٢٧ : « فالغزالي معروف بأنه لم تسكن له فى الحديث يد باسطة . وعامة ما فى « الاحياء » من الأخبار والآثار مبدد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء ، ولم يسند الرجل الحديث لواحد » . كذلك نرى عبد الرحمن العراقى (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ) ، فى كتابه « تخریج أحاديث إحياء العلوم » ، يلاحظ ملاحظات نقدية كثيرة على الغزالي .

(٣) عنى خصوم الغزالي من رجال الدين (الحنابلة) بالاشارة إلى هذا كثيراً . فأبو الفرج الجوزى ألف كتاباً خاصاً فى هذا ، وحقيقده (سبط ابن الجوزى) واقفه على هذا الحكم : « قال أبو الفرج بن الجوزى قد جمعت أغلاط الكتاب (احياء علوم الدين) وسميته « لإعلام الأحياء بأغلاط الاحياء » اشترت إلى بعض ذلك فى كتاب « تليس إبليس » ، وقال سبطه أبو المظفر : وضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنسكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » (ذكره الألويسى فى كتابه « جلا العينين » ص ٧٤) . راجع فيما يتعلق بضعف الغزالي فى نقد الأحاديث (مناظرة ابن حجر والعيني فى هذا) (القسطلانى ج ٩ ص ٣٦٠ (فى باب : « رقائق » برقم ٥١) . وفى كتاب « تفسير سورة الاخلاص » ص ٧٢ فى أسفل بنقد ابن تيمية الغزالي فى هذا الصدد نقداً عنيقاً فيقول : « فإنه لم يكن يعرف ما قاله احمد ، ولا ما قاله غيره من السلف فى هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث » .

فيه أقل من حظ الحديث السابق . فيروى عن النبي أنه قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شيء يكون » . وهذا الحديث ذكره الطبري في صيغ عديدة (١) ، بينما هو كان يحفل الأحاديث المتعلقة بالعقل جهلاً تاماً . وهناك في كتب أخرى ، فيها وصف لكيفية خلق الوجود وصفاً يتفق مع السنة بمعناها الضيق ، كما في كتاب « العرائس » (٢) « للشعبي مثلاً ، نجد ذكراً للأحاديث المذكور فيها القلم (٣) ، بينما الأحاديث المذكور فيها العقل قد أغفلت إغفالاً تاماً . وذلك لأن تلك الفكرة الخاصة بالقلم أسهل في التوفيق بينها وبين ما أتى به الاسلام ، نظراً إلى النهج الذي ذكر عليه القلم في القرآن . ومن أجل هذا كانت تجد تسامحاً أكثر عند أهل الحديث (٤) . أما الحديث الخاص بالعقل فلم يكن من المستطاع أن يحظى بمثل هذا التسامح . غير أن هذا الحديث قد وجد على كل حال ، وكان يردد ويتكرر ذكره بطريقة آلية دون اعتبار لمعناه واحتياطات لتنتائج ، ولم يكن من الصعب أيضاً أن يجعل له إسناد . أما ذوو الفطنة فكان عليهم أن يفلوا من حدته على أقل تقدير . وهذا تم مبكراً جداً بأن أحدثوا في نص الحديث بعض التغيير ، فجعّلوا صيغته على النحو التالي : « لما خلق الله العقل » ، بدلاً من : « أول ما خلق الله العقل » ، واعتبار العقل من خلق الله شيء مفهوم مسلم به . وفي هذه الصيغة الآهون خطراً استطاع هذا الحديث أن يجد قبولاً جدياً في دوائر سنية واسعة باعتباره « حديثاً مرفوعاً » . فان ابن احمد بن حنبل جعل له مكاناً بين الإضافات التي أضافها إلى كتاب « الزهد » الذي ألفه أبوه (واسم هذه الإضافات :

(١) « تاريخ » الطبري ص ٢٩ — ص ٣٨ .

(٢) طبعة القاهرة (الحاي ١٣١٢) ص ١٠ ، ص ٢٢ .

(٣) راجع فيما يخص بهذه الأحاديث ما قلناه في « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٧ ص ٣٩٦ ، تعليق رقم ٦ .

(٤) راجع الروايات المختلفة في « كنز العمال » ، برقم ٣٣٠٦ ، ٣٣١٤ وما يليه ، مأخوذة عن مسند ابن أبي شيبة والدارقطني .

« زوائد الزهد ») ، والطبراني جعل له إسناداً ينتهى عند أنى هريرة ، الذى كان قادراً على أن يتحمل كل إسناد ! وهناك آخرون — مثل ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية — يمنعون من روايته حتى فى هذه الصيغة المتلازمة مع السنة قائلين : « لا يصح فى العقل حديث » (١) ، بينما نجد من جديد أناساً أقل تشدداً يحتاطون فى الحكم عليه ، فيقولون إنه ليس من المستحسن أن يحكم على حديث بأنه موضوع ، إذا كان هذا الحديث مختلفاً فيه (٢) .

وفى هذه الصيغة الجديدة عانى النص تغييرات وتزويقات كثيرة من جديد أيضاً ؛ فالله لا يقول للعقل أقبل فيقبل وأدبر فيدبر لحسب . بل يقول له أيضاً أقعد فيقعد ، وانطق فينطق ، وأصمت فيصمت ؛ ويضاف إلى فضائل العقل السابقة الذكر فضائل أخرى كثيرة ، فيقول له الله : « بك أعرف ، وبك أحمد ، وبك أطاع » (٣) . ولعل هذه الصفات التى تضاف إلى العقل أن تكون توسعاً فى نص حديث « أول ما خلق الله العقل » .

وثمة تغيير حاسم فى حديث العقل ظهر فى روايته فى صيغة أوردها مجير الدين فى مقدمة كتاب تاريخ القدس ، يذكر فيها العقل لا باعتباره أول ما خلق الله وإنما باعتباره آخر شيء خلق ، أما أول شيء خلق فهو اللوح المحفوظ والقلم . فبعد أن خلق الله الوجود بما فيه من عجائب ، أوجد فى النهاية العقل . ولكن ظل الخطاب الذى وجهه الله إلى العقل ، فى هذه الصيغة الجديدة ، كما هو فى الحديث الذى ذكرناه آنفاً (٤) . فنحن هنا إذاً بازاء محاولة جديدة من أجل صياغة حديث العقل فى صيغة مقبولة ممكنة .

(١) راجعه فى « الدرر المنتثرة » (بهامش كتاب « فتاوى حديثية » ، طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧) للسيوطى ص ١٩٧ .

(٢) ذكر ذلك الغاوى فى كتاب « اللؤلؤ الرصوع فيما لأصل له أو باصالة موضوع » (طبعة القاهرة ، المطبعة البارونية ، بدون ذكر تاريخ) ص ٦٤ فقال : « وحيث اختلف فيه لا يحسن الحكم عليه بالوضع » .

(٣) « كنز العمال » برقم ١٩٢٨ .

(٤) « الأئس الجليل » ص ١٢ .

وليس أدل على توطن هذا الحديث الممنوع ، حتى بصورته الأولى ، في العلوم الدينية الإسلامية على الرغم من احتجاجات أهل السنة وعلى الرغم من تحايلات رجال الحديث ، نقول ليس أدل على هذا من أن واحداً من أكثر أهل السنة تشدداً وتعصباً ، رأى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى أن يؤول الحديث تأويلاً نحوياً من شأنه أن يسلب الحديث اتجاهه الأفلوطيني . فليس الحديث : أول ما خلق الله العقل (أى أول شيء خلقه الله هو العقل) وإنما هو أول ما خلق الله العقل (أى لما خلق الله العقل) قال ... الخ . ويقابل هذا في العبرية $\text{בְּרֵאשִׁית בָּרָא אֱלֹהִים אֶת הָעֶלְמִים}$ (أى: في البدء خلق) (أى: لما خلق) فكأن خلق العقل إذا قد سبقه خلق المخلوقات الأخرى ، بعكس ما يقوله الأفلاطونيون المحدثون^(١) . ونرى من هذا كيف أن ابن تيمية الذي ابتكر هذا التقدير البارع استطاع أن يبلغ به نفس الغرض الذي حاول أسلافه أن يبلغوه بتغييرهم في الحديث تغييراً كبيراً ، وذلك بأن يضعوا «لما» بدلاً من «أول ما» ، وبأن يغيروا في الترتيب .

— ٢ —

وهناك عنصر أجنبي أدخل في تكوين نظرية أهل السنة في النبي . ولكن على الرغم من أنه أجنبي فقد ظهر أنه ملائم وقابل لأن يهضمه أهل السنة^(٢) . وذلك العنصر هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجوداً من قبل أن يوجد على الأرض . وهذا التصوير لا يبدو كمنظرية قالت بها المدارس الغنوصية والصوفية ، وإنما يبدو في صورة أحاديث موثوق بصحتها ، منتشرة في البيئات السنية على اعتبار أنها قول قال به النبي نفسه .

(١) « الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان » ص ٥٤ : « وعندما أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل » .

(٢) راجع ماقلناه في «مجلة الجمعية المشرقية الألمانية» المجلد رقم ٦٢ ص ١٣ و ص ٢٦ وما يليها

فالحديث التالى منتشر انتشاراً عاماً ، ونعنى به : « كنت نبياً وآدم بين الطين والماء » ، أى قبل أن يخلق الله آدم من هذه المواد ، أو أنه كان نبياً قبل أن يوجد آدم وقبل أن يوجد الطين والماء (اللذين منهما خلق آدم) . ومع أن المتشددى من نقدة الأحاديث رفضوا صوغ هذه النظرية على هذا النحو^(١) إلا أنهم اضطروا مع ذلك إلى التسليم بصحة هذه النظرية تبعاً لمعاييرهم الخارجية الظاهرية التى يعتمدون عليها فى معرفة صحة الأحاديث . فهم يعترفون بها أولاً فى صيغة الرواية التى أوردها الترمذى (ج ٢ ص ٢٧٢) فى « سننه » معلقاً على الحديث بقوله : « حديث حسن صحيح غريب » . فى هذه الصيغة يروى أبو هريرة أن النبى حين سئل متى جاءت النبوة ، قال : « وآدم بين الروح والجسد » . ثم إنهم يعترفون أيضاً بالرواية^(٢) التى ذكرها ابن سعد فى « طبقاته » (القسم الأول ، ج ١ ص ٩٦ س ٢) باسناد إلى عرابض بن سارية الصحابى ، وهى الرواية القائلة بأن النبى قال : « إني عبد الله وخاتم النبيين^(٣) وإن آدم لمنجدل فى طينته » ، أى بينما كان آدم لا يزال فى الطين الذى خلق منه . وفى فصل خاص (الكتاب المذكور ص ٩٥ س ١٥ وما يليه) جمع ابن سعد الروايات المختلفة لهذه النظرية اعتماداً على روايات رواته الثقة .

(١) ابن تيمية فى رسالته « فى الكلام على القصص » ، وفيها يطعن على الأحاديث التى يرويها القصاص ويقول إنها أحاديث باطلة (« الرسائل » ج ٢ ص ٣٤٠) . وقد أورد الفواقجى (ص ٣١) هذه الأحاديث نقلاً عن السخاوى .

(٢) لكن هذا الحديث المروى عن أرباض عن النبى يروى أيضاً فى صيغة أخرى يظهر أن المراد منها التخفيف من فكرة وجود محمد وجوداً سابقاً . فالهروى (المتوفى سنة ٤٠١) يرويه فى كتابه « الغريب » (أورده كتاب « النهاية » ، تحت لفظ : جدل ج ١ ص ١٤٩ ، وعنه أخذ « لسان العرب » المجلد ١٣ ص ١٠٩ فى أسفل) : « أنا خاتم النبيين فى أم الكتاب ، وإن آدم الخ... » . وهذه الصيغة لا تدل إلا على أن الله قد قضت مشيئته ، قبل أن يخلق آدم ، أن يكون محمد نبياً . ولكن ليس من شك فى أن ابن سعد يورد النص الأصيل للحديث .

(٣) أورده ابن تيمية فى الموضع المذكور ، وابن قيم الجوزية فى « هداية الحيارى » (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٦٣ بالنص التالى : « إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين الخ »

وليس أدل على أن المراد من كل هذه الأحاديث هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجوداً سابقاً ، من الرواية المنسوبة إلى قتادة (المتوفى سنة ١١٧) البصرى (الكتاب المذكور ص ٩٦ س ١٦) : روى عن النبي أنه قال : « كنت أبيل الناس في الخلق وآخرهم في البعث » ، أى انى خلقت قبل خلق جميع الناس .

ثم جاءت نظرية الشيعة في النبوة فاستخلصت نتائج هذا التصوير البعيدة وذلك لأنه لما كان الشيعة قد ارتفعوا ، في نظرياتهم ، بطبيعة الأئمة إلى مقام فوق مقام الطبيعة الانسانية وجعلوا لهؤلاء مكانة في العالم العلوى ، كان من الضروري أيضاً أن يكون محمد نفسه باعتباره سجداً أعلى للأئمة ، أن يكون له نصيب في الأسطورة التي نسجت شيعة حول أهل البيت . فحين خلق الله آدم وضع في ظهره محمد وعلي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين على صورة جواهر منيرة (١) أرسلت نورها في جميع أنحاء العالمين العلوى والسفلى . ولهذا الجواهر الموضوعة في جسم آدم كان السجود الذي أمر الله الملائكة به ، فسجدوا إلا ابليس ، أبى واستكبر . وحينئذ أمر الله آدم أن يرتفع يبصره إلى ذروة العرش ، فرأى آدم كيف انطبعت صور أنوار أشباح محمد وبقية أفراد أهل البيت ، في العرش . كما ينطبع وجه الانسان في المرأة الصافية » (٢) . (راجع الملحق رقم ٢) .

وهذه العملية يتحدث عنها التفسير الذي أهده الشيعة إلى الامام حسن العسكري فيطيل الحديث ، مضيفاً إلى ذلك ملاحظة على أسماء أهل البيت ،

(١) ويقولون في هذا الوجود وجوداً سابقاً بهولهم إن الله خلق أرواح أفراد أهل البيت قبل أبدانهم بألأى عام : « وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألأى عام » ، (السكيتي ، « الأصول من الجامع السكافي » ، طبعة بومباي ص ٢٧٦ في أسفل) .

(٢) « تفسير العسكري » ص ٨٨ : « أنظر يا آدم إلى ذروة العرش ! فنظر آدم ، ورفع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش ، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره ، كما ينطبع وجه الانسان في المرأة الصافية . فرأى أشباحنا فقال : يا رب ما هذه الأشباح ؟ قال الله : يا آدم ، هذه أشباح أفضل خلأني وبرأياي ، هذا محمد الخ » .

فيقول إن الله علم آدم أن تلك الاسماء الخمسة ذات نسب باسم الله كلاً بحسب أهميته ومرتبته (« شققت لهم اسماً من اسمي ») . ولهذا فإن دعاء الله يؤثر أعظم التأثير إذا ما استشفعوا إليه .

وفيما يتصل بفكرة انطباع صور المصطفين من عباد الله في عرشه ، اعتقد أن هذه الفكرة أتت من تصورات يهودية ، وأنها شاهد جديد على أن مصادر غلو الشيعة في الأئمة يجب أن لا يبحث عنها في الميدان الفارسي فحسب . فإن الهجاءه (١) تقول في إحدى الروايات التي ترونها إن صورة الانسان الموجود بالجزء الأعلى من العرش السماوى (حز قیل ١ : ٢٦) هى صورة يعقوب التى رفعت إلى عرش الله . والملائكة الذين يصعدون وينزلون على سلم السماء (التكوين ٢٨ : ١٢) يعرفون فى وجه الرحالة النائم الصورة السماوية الأولى (٢) . فتشيل صورة جد بنى اسرائيل منطبعة منذ القدم فى عرش الله ، يبدو أنه كان نموذجاً لتمثيل صورة أجداد الأئمة فى هذا المكان السماوى نفسه . إلا أن الأسطورة الشيعية لا توضح لنا ، هل هى تعتبر صور أهل البيت

(١) [تنقسم الكتب التى تشتمل على تعاليم الديانة اليهودية إلى قسمين : قسم ذى طابع تفسيري اسمه « هالاكاه » ؛ والآخر يشتمل على الكتب الأخرى واسمه « هجاءه » (من الفعل هجيد ، أى شرح ، علم) . وهذه الكتب الأخيرة تشتمل على قصص تكمل أو توضح قصص الكتاب المقدس ؛ وعلى تعاليم دينية وأخلاقية خاصة بالله وصلته بالعالم والانسان ، واجبات الانسان نحو الله ونحو الجار ؛ وبالمعتقدات الدينية ؛ وعلى أقوال سياسية مثل التعاليم الخاصة بعلاقات الشعب الاسرائيلي مع الشعوب الأخرى ، وتعزيات له عن أحواله السيئة الحاضرة التى هو فيها ، وحث على الأمل فى مستقبل أحسن ؛ وأخيراً على أمثال وقصص شعبية]

(٢) تلمود بابلي ، كتاب خواين ص ٩١ ب : « هم يصعدون وينظرون إلى الصورة التى فى العلا » ؛ سفر تكوين ريمان الترجوم فصل ٦٨ (مع الإشارة إلى سفر أشعيا ٤٩ : ٣) : « أنت الذى صورتك منطبعة فى العلا » ؛ الترجوم الاورشليمي على سفر التكوين آية ١٢ اصحاح ٢٨ : « يعقوب الصديق الذى صورته مثبتة فى كرسي الجلالة » . كذلك يرد فى الاناشيد المستعملة فى العبادة (مثل القدوشا فى صلاة موساف التى تقام فى اليوم الثانى من عيد رأس السنة) : « صورة الطاهر منطبعة فى العرش » ؛ وكذلك فى صلاة أوفان التى تقام فى يوم سبت نحمو : « البطل الطاهر منطبع فى العرش » (راجع بير Beer ، « عبادة اسرائيل » ص ٧٧٦ س ٨) .

منطلبة إلى الابد منذ القدم في عرش الله — كما هي الحال في صورة يعقوب عند اليهود — أو تعتبر أن ظهورها كان انعكاساً مؤقتاً فحسب ، كان الغرض منه أن يتأملها آدم . ومهما يكن من شيء فإن هذه الأسطورة التي نحن بصددتها تقدم لنا صورة من صور التعبير عن الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً . ويتصل بهذا أوثق اتصال تلك النظرية القائلة أن جوهر النبي النوراني يتوارث جيلاً بعد جيل — بمعنى آخر طبعاً غير المعنى الذي قصد إليه الشعراء الذين عاصروا النبي ، حين مدحوه بقولهم إنه نور أضاء على البرية كلها ،^(١) وإنه نور يستضاء به^(٢) .

وما نريد أن نتحدث عنه هنا هو تلك العقيدة التي نشأت مع تقديس نبوة محمد ، القائلة بأن في النبي جوهرأ نورانياً قائماً به قياماً حقيقياً واقعياً ، وضع أول ما وضع في جبهة آدم ، وانتقل من آدم على توالى العصور وباستمرار إلى حامل الشريعة الالهية والرسالة الربانية حتى وصل ، بعد أن مر بأجداد النبي ، إلى النبي وتجلي فيه هو نهائياً^(٣) . وتوسع الشيعة في هذه العقيدة أيضاً توسعاً كبيراً ، فيه غلو وفيه إفراط شديد . ولكن عناصرها الأولى كان معترفاً بها عند أهل السنة أيضاً ، بل أفضت في البيئات السنية نفسها إلى أسطورة ضخمة :

فبعد أن أمر الله الملائكة بأن يأتوا بقبضة تراب من زوايا الأرض الأربع ، أمر جبريل أن يأتيه بالقبضة البيضاء ليخلق منها محمداً . حينئذ هبط جبريل ... في ملائكة الفردوس المقربين الكرويين وملائكة

(١) حسان بن ثابت ، أورده ابن هشام ص ١٠٢٥ س ٢ .

(٢) كعب بن زهير ، « بابت سعاد » البيت رقم ٥١ .

(٣) في السكتب التي تعرض قصص الانبياء يذكر أن النور الحمدي ينتقل من جبين آدم إلى شيث أولاً ، ثم أنوش ثم قينسان الخ ، وعن طريق اسماعيل إلى أجداد النبي ، راجع ما يقوله ابن أبياس في « بدائع الزهور ووقائع الدهور » (القاهرة ، المطبعة السكستلية سنة ١٢٩٦) ص ٤٤ وما يليها .

الصفحة الأعلى فقبض قبضة « من الموضع الذي سيكون يوماً ما قبراً للنبي » (أى القبضة) يومئذ بيضاء نقية ، فعجنت بماء التسليم ، ورعرت حتى صارت الدرة البيضاء ، ثم غمست في أنهار الجنة كلها . فلما أخرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى الى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبياً ، فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا . . . ثم طيف بها في السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً . . . قبل أن تعرف آدم . ثم عجنها بطينة آدم . . . وهذا هو نور محمد ، وضع في جبين آدم ، فأضاء كالقمر ليلة البدر . فكأن الملائكة إذا قد عرفوا محمداً قبل أن يعرفوا آدم^(١) .

وكل ما هنالك من خلاف جوهرى بين تصوير الشيعة لهذه الفكرة وتصور أهل السنة ، هو فى أن الشيعة يؤكّدون أن علياً كان له نصيب فى انتقال الجوهر النورانى انتقالاً مستمراً جيلاً بعد جيل من الجسد الواحد من أجداده إلى الجد الآخر . فقبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة كان محمد وعليّ نوراً واحداً بين يدي الله^(٢) . فلما خلق آدم سرى هذا النور ، وهو على هذا النحو من الوحدة غير المنقسمة ، فى الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاكيات ، ، حتى وصل الى عبد المطلب وحينئذ انقسم الجوهر النورانى الربانى فذهب قسم الى عبدالله ، والد النبي ، وقسم الى أبى طالب ، والد علي .

(١) الثعلبى ، كتاب قصص الأنبياء المسمى « بالعرائس » (طبعة القاهرة ، الحادى سنة ١٣١٢) ص ١٦ فى منتصفها ؛ ص ١٧ فى السطر السابق على الأخير .

(٢) يورد ابن المطهر الحلى فى « كشف اليقين فى فضائل أمير المؤمنين » (ألف من أجل السلطان أوجيتو خودابنده وطبع فى بمباى سنة ١٢٩٨ ملحقاً بكتابه الكبير « الفين الفارق بين الصدق والمين ») وهو ألف برهان على امامة على مضاعفاً اليها ألف أخرى للرد على خصومه) ، ص ٤ حديث سلمان عن النبي : « كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله قبل أن يغتنى آدم بأربعة عشر ألف سنة » فلما خلق الله آدم سلك ذلك النور فى صلبه الخ ، .

وفي هذا المعنى ينسب الشيعة (١) الى محمد أنه قال عن عليّ أنه : « المتروك
معى من الأرحام الزاكيات ، والمنقلب معى فى الأصلاب الطاهرات ،
والراكض معى فى مسالك الفضل ، والذى كسب ما كسبته من العلم
والحلم والعقل ، وشقيقى الذى انفصل منى عند الخروج الى صلب عبد الله
وصلب أبى طالب » .

- ٣ -

وعلى كل حال فإن أهل السنة لم يستخلصوا من فكرة « النور المحمدى »
كل نتائجها كما فعل الشيعة . ولكنهم كلها تطوروا وبمقدار سماحهم بإيجاد
نوع من عبادة محمد وتقديسه ، نراهم لم يكونوا متشددين فى عدم الاقتراب
من نظرية الشيعة فى النبوة . يدل على ذلك المثال التالى :

كان أهل السنة فى البدء ينكرون الرأى القائل بأن أجداد محمد كانوا
مؤمنين ، وهو الرأى الذى يقول به الشيعة . ويعتمدون فى ذلك على أحاديث
تدل على أن أجداده الذين كانوا قبل أن يبعث نبياً ماتوا كافرين ، ولكن
النبي توسل فى بعثهم بعد أن ماتوا على الكفر ، من أجل شىء واحد هو أن
يؤمنوا بالدين القويم . وبهذا المعنى وحده يعد النبي ابناً لأباء مؤمنين . وأتوا
بآية من القرآن (٢٨ : ٥٦) أيضاً للدلالة على أن عبد الله لن يدخل الجنة (٢)
وحرصوا على أن يقولوا ، بخلاف ما يقوله الشيعة ، بأن والد عليّ بن أبى
طالب مات كافراً (٣) ، وكانت عناية الدوائر السنية بترديد هذا القول عناية
بلغ من شدتها أن هذا القول دسّ على كتاب «الفقه الأكبر» المنسوب الى أبى

(١) « تفسير العسكرى » ص ٧٣ .

(٢) « السكامل » ص ٧٨٨ ، س ٧ وما يليه .

(٣) نلذكه ، « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٢ ص ٢٧ ؛ راجع « عيون
الأخبار » ص ٣١١ س ١٠ .

حنيقة^(١)، إن لم يكن قد وجد فيه من الأصل ثم حذف منه من بعد .
ولا يتصل بهذا مسألة طهارة آباء النبي من كل سفاح، حتى لو كان أجداده
القريون كفاراً، إلا أنه كان زواجهم جميعاً حتى أقدمهم، زواجا صحيحاً من
وجهة نظر الاسلام^(٢). فما كان عاراً بالنسبة الى العربي العادى، ونعنى به
أن يكون فى آباءه سفاح، لا يمكن أن يكون موجوداً فى آباء النبي. كما لا يمكن
أن يكون فى سلسلة نسبه نكاح من نوع نكاح المقت، [وهو أن يتزوج
الانسان امرأة أبيه من بعده]. بل إننا نرى رجلاً ذا نزعة عقلية كالجاحظ
يعتبر كافراً كل من اعتقد غير هذا ولم ينكر إنكاراً باتاً إمكان وجود سفاح
فى آباء النبي وأصلابه^(٣).

وكما ازداد تقديس النبي فى الدوائر السنية الاسلامية^(٤)، كلما عمل
مذهب السنة على التوسع فى استخلاص نتائج فكرة انتقال نور النبي من آدم
الى محمد. فقالوا ان هذا الاعتقاد ينفي إمكان أن يكون أحد أجداد النبي كافراً

(١) كذلك فى النص الذى شرحه على القارى (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٩٦ وما
يليهما ؛ والفقرة الآتية : « ورسول الله صلعم مات على الايمان ، وأبو طالب عمه صلعم وأبو على
رضى الله عنه مات كافراً » لا توجد فى متن « الفقه الأكبر » الموجود فى آخر هذا الشرح .
بل إن فسكرة أن أبوى محمد كانا كافراً قد دست على بعض نسخ « الفقه الأكبر » ،
راجع بحث محمد بن شنب فى « المجلة الافريقية » سنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ *Revue Africaine* .
(٢) ويحملون الأحاديث الآتية أساساً لهذه النظرية : « لم أزل أنقل من أصلاب الظاهرين
الى أرحام الظاهرات » (أورده فعز الدين الرازى فى « مفاتيح الغيب » ج ٦ ص ٥٤٨ ، عند
تفسيره للآية ٢١٩ من السورة رقم ٢٦) ، أو : « ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الاسلام
حتى خرجت من بين أبى وأمى » ، وكذلك : « كلنا نكاح ، ليس فينا سفاح » . وقد حاول
رجال الدين التوفيق بين الصعوبات التى قامت ضد هذا الحديث الأخير (وجود سفاح فى اجداد
الرسول) وبين نظريتهم هاتيك ، عن طريق تصحيحات فى نسبه صادرة عن الهوى والغرض .
(٣) فى « كتاب الاصنام » ؛ وهذا الموضع أورده الدميرى تحت لفظ « قرش » ج ٢
ص ٢٩٢ فى أسفل : « ومن اعتقد غير هذا فقد كفر ، وشك فى هذا الخبر ، والحمد لله
الذى نزهه عن كل وصم ، وطهره تطهيراً » .

(٤) راجع فيما يتبقى بازدياد تقديس محمد ازديادا مستمراً ، بمننا الذى ظهر فى « مجلة
فيتا لمعرفة الشرق » ، المجلد رقم ١٥ ص ٣٣ .

وخصوصاً أبواه . ثم إن المشركين نجس كما هو وارد في القرآن (٢٨ : ٩) فكيف يمكن أن يكون أجداد النبي الأطهار مشركين ؟ الأولى أن يقال إنه منذ آدم لم يكن ثمة مشرك في سلسلة نسب الرسول . ومن بين المدافعين عن هذه العقيدة فخر الدين الرازي . حتى أن جلال الدين السيوطي شعر بأنه مدين له بالشكر وانشاء لدفاعه عنها وتأنيده لها في « تفسيره »^(١) فقال فيه :

من آدم لأبيه عبيد الله ما فيهم أخو شرك ولا يستنكف
فالمشركون كما بسورة توبة نجس ، وكلهم بطهر يوصف
وبسورة الشعراء فيسه تقلب في الساجدين^(٢) فكلهم مؤمن حنيف
هذا كلام الشيخ فخر الدين في « أسرار » هبطت عليه الزرْف
فجزاه رب العرش خير جزائه وحباه جنات النعيم تزخرف^(٣)

ومن أجل هذا فإن من المفهوم طبعاً عند السيوطي أن والدي النبي على الأقل لا يمكن أن يكونوا كفاراً : فعبد الله كان النور المحمدي واضحاً على جبينه ، وآمنة أخذت هذا النور عن زوجها — وهذه فكرة تقول بها الأخبار القديمة عن حمل النبي ومولده .^(٤) ويتردد ذكرها دائماً بصورة شعبية في قصائد المولود^(٥) . والسيوطي أشد الكتاب الإسلاميين حماسة لهذه الفكرة حتى أنه كرس للدفاع عنها وتأنيدها ما لا يقل عن ثمان رسائل خاصة^(٦) جمعت في مجموعة ، وطبعت في إحدى مطابع حيدر آباد سنة ١٣١٦ هـ .^(٧)

(١) لعل الإشارة إلى ج ٦ ص ٥٤٨ .

(٢) سورة رقم ٢٦ ، آية رقم ٢١٩ .

(٣) من « قصيدة في إعان أبوي النبي » ، مطبوعة في كتاب محي الدين المطار ، « بلوغ الأدب في مآثر العرب » (طبعة عينية في لبنان سنة ١٣١٩) ص ٧٠ — ص ٨٠ .

(٤) ابن سناء ، القسم الأول ، ج ١ ص ٥٩ = ابن هشام ص ١٠١ س ٧ وما يليه

(٥) كما ترى مثلاً في كتاب أحد بن عمار ، « تجلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب »

(طبعة الجزائر سنة ١٩٠٢) ص ٣٧ .

(٦) راجعها في بروكلمن ج ٢ ص ١٤٧ بارقام ٤٣ إلى ٤٨ .

(٧) ابن شبيب ، « المجلة الأفرقية » سنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ .

وطالما كانت فكرة انتقال الجوهر النوراني الموجود وجوداً سابقاً موجودة في نطاق مذهب السنية ، فإن هذه العملية ، عملية الانتقال ، قد انتهت ، بظهور محمد (١) ، بينما مذهب الشيعة يجعل انتقال النور المحمدي يستمر في سلسلة الأئمة . هذا إلى أن نظرية النور المحمدي هذه قد قيل بها خارج دائرة المذهب الشيعي في عصر متأخر من أجل استخدامها في المناورات السياسية الدينية ، فتراها تظهر بطريقة تستحق النظر والدراسة سنة ١٥٢٠ بمدينتي كاشغر ويرقند حيث نرى حركة خوجه ، كما أوضح ذلك مارتن هيرتمن ، تعتمد في قيامها على ادعاء أن النور المحمدي انتقل بطريق مستمر لانقطاع فيه إلى مخدوم . وكان النزاع الذي حدث بين أبنائه مصدره مسألة إلى من منهم انتقل الجوهر النوراني الذي حل في أبيهم مدة ما (٢) .

ونحن لم نعن بالتحدث عن هذه المظاهر الأسطورية في نظرية النبوة عند المسلمين وتطوراتها وتفرعاتها ، إلا لكي نكشف عن أقدم الوثائق التي كانت أساساً لها .

وأنا أرى في بعض أبيات الكميت نوعاً من مثل هذه الوثائق . فإنه يقول في إحدى قصائده الهاشمية (رقم ٣ ٦ الأبيات ٣٩ ٤٠) مدحاً في الرسول :

مَا يَبِينُ حَوَاءَ إِنْ نُسِبَتْ إِلَى آمِنَةَ اعْتَمَ (٣) نَبِيُّكَ الْمُسَدَّبُ

(١) يروي الكنتاني في « صلوات الأنفاس » (طبعة فاس سنة ١٣١٤) ج ٢ ص ١٩٠ عن سيدي محمد ابن الهاشمي (المتوفى سنة ٨٢٣) أحد رجال الدين ، أنه لقب بلقب « النور المحمدي » لأنه « كان إذا رأى أحداً يقول أهلاً بالنور المحمدي حتى لقب بذلك » . وهذا لا يمكن أن يكون له معنى إلا إذا كانت التحية موجهة إلى أحد من نسل النبي .

(٢) مارتن هيرتمن ، « الشرق الاسلامي » ج ١ ص ٣٣٥ *Der islamische Orient* ، وكتابه عن « التركستان الصينية » ص ١٧ *Chinesisch-Turkestan* .

(٣) يترجمها هوروفنس بما معناه : إن شجرة نسبك الدائمة الخصرة تشمل ما بين حواء إلى آمنة ؛ ولسكن راجع مع ذلك معاني لفظ « اعتم » والشواهد عليها في « لسان العرب » تحت هذه الكلمة ، المجلد رقم ١٥ ص ٣٢٠ من ١٣ وما يليه .

قـرناً فقرناً تناسخوك لك ١١ فضضة منها بيضاء والذهب (١)

ولن نستطيع أن نفهم هذا إلا على أن جوهر النبي السامي قد وجد منذ حواء ، وأنه (وهنا نراه يشبه بالفضة اللامعة والذهب) (٢) انتقل جيلاً بعد جيل بدون انقطاع . أى أن جوهر النبي إذا كان موجوداً وجوداً سابقاً منذ آدم ، وانتقل على صورة جوهر سام من حامله في هذا الجيل إلى حامله في الجيل الذى يليه ، حتى ظهر في محمد جلياً سافراً . ونحب أن نلفت النظر هنا إلى استعمال الكميت لكلمة « تناسخ » للدلالة على هذا الانتقال ، وهذه الكلمة هى الاصطلاح الصحيح الخاص بفكرة انتقال الأرواح من شخص إلى شخص (٣) ، والذي استعمله الكتاب المتأخرون باستمرار للدلالة على انتقال

(١) « هاشميات الكميت » ، طبع هوروفنس . وهذه النظرية ينسب إلى على أنه يقول بها في إحدى الخطب المنسوبة إليه ، « نهج البلاغة » طبع محمد عبده (بيروت سنة ١٣٠٧) ص ٩٥ س ١٠ .

(٢) ليس من غير الممكن أن يكون هناك صلة بين هذا وبين ما اعتاده الأفلاطونيون المحمديون وأصحاب الغنوس من تشبيه الجواهر الصادرة عن الله بالمعادن الراقية والأحجار الكريمة (« الذهب البريز » ، « أثولوجيا أرسطوطاليس » طبع دبرتشى ص ٢ س ٦ وما يليه) ، وراجع فيما يتعلق بانتقال « الجواهر » لدى الغنوصيين المسيحيين ، ووتر ، في كتابه « رسائل دينية » Usener, *Theologische Abhandlungen*, C. v. Weizsäcker... gewidmet 201 ff., Kebra nagast, ed. Bezold, Uebers, 66 f.

(٣) إلى جانب هذا الاصطلاح الشائم الاستعمال للدلالة على انتقال الأرواح من جسم إلى جسم (كذلك يرد في صيغة أخرى هى « المناسخة » ، كما في « رسائل » الجاحظ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ ص ١٢٨ س ١ : « فادعى الربوبية من طريق المناسخة » ، وابن خلكان ، طبع قسنطينة ، ج ٤ ص ١٣٦ السطر الأخير) يوجد الاصطلاح الآخر تقنيص = تقميص ، ويستعمل خصوصاً للباس قميص بدل قميص آخر (راجع القاموس المحيط ، تحت هذا اللفظ) : مذهب أصحاب التقميص ، « المشرق » المجلد رقم ٩ ص ١٠٢٠ س ١٧ ، س ١٨ . وفي ترجمة عربية جزائرية لكتاب العبارات العبرية المسمى « سدور » (« نظام الصلاة بكل لغة » ، تأليف الياهو خاي جرش ، طبعة ليثورنو سنة ١٩٤٣ هـ من سنة الخلق) ورقة رقم ٢٤٥ | ترد العبارة : « سواء في تقميص هذا أوله في تقميص آخر » ، كترجمة لعبارة عبرية فيها إشارة إلى أكوار التناسخ (جلبول) الذى يترجمها المترجم بكلمة « تقميص » في هذه العبارة .

الجزء الالهى فى النفس من إمام إلى إمام آخر^(١).

ومن هنا نستخلص كيف أن فكرة انتقال جوهر النبى السامى الموجود وجوداً سابقاً قد وجدت، مبكراً فى بيئة الذين تشيعوا على . إذ يجب علينا افتراض أن الشاعر قد عبر هاهنا شعراً عن نظرية كانت عامة شائعة فى البيئة^(٢) التى عاش فيها .

— ٤ —

ووجد الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً أعظم صورة وصل إليها فى النظرية القائلة بأنه هو كل التجليات التى تجلت فيها الروح القدسية . فلا خلاف بين الأنبياء إلا فى المظهر الخارجى ؛ أما فى الحقيقة فإنه رسول واحد ، بعث إلى العالمين فى أزمنة مختلفة وفى مظاهر جسمانية متباينة ، كى يعلن للناس إرادة الله وينبئهم بمشيئته . وما آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد بمختلف الواحد منهما عن الآخر ، ولكنهم جميعاً روح قدسية واحدة متجلية فى صور ومظاهر جسمانية مختلفة ، فجوهرهم جميعاً واحد ، وليس الاختلاف إلا شيئاً ظاهرياً فحسب .

وهذه النظرية ترجع فى أصلها إلى الغنوصية المسيحية ، أى إلى الفكرة التى عبرت عنها المواعظ Homilien المنسوبة إلى القديس كليمانس فقالت (الموعظة رقم ١٨ ، فقرة ١٣) : « ليس ثمة غير نبى صادق واحد ، هو إنسان خلقه الله وزوده بروح القدس ، يمر خلال عصور العالم (τὸν αἰῶνα τρέχει) منذ البدء ، بأسماء وصور متغيرة ، حتى يشمل الله برحمته فيبلغ الراحة الأبدية بعد

(١) « تناسخ الجزء الالهى فى الأئمة » (المهرستانى ص ١٣٣ س ٣) ؛ « نور يتناسخ من شخص إلى شخص » (الكتاب السابق ص ١١٣ س ٣ ؛ ص ١١٤ س ١) .
 (٢) كذلك كان يلذ للعباسيين أن يقال لهم إن فضائلهم كانت قد نشأت من قبل فى صلب آدم . فالأغاني (ج ٩ ص ٦٠ س ٦ من أسفل) يورد البيت الآتى من قصيدة فى مدح المأمون :
 إن الذى قسم الفضائل . فارها فى صلب آدم للإمام السابع

انقضاء العصر التي حددت له كي يؤدي الرسالة التي أخذ على عاتقه أداءها (١) وبهذه النظرية قالت بعض المذاهب في الاسلام وبعض الحركات السياسية التي أفضت إلى إيجاد مذاهب . ولعل المقنع الدجال وصاحب الفتنة المشهور (٢) أن يكون من أول القائلين بهذه النظرية ، وذلك في أول الخلافة العباسية . ولعله كان في مقدورنا أن نعرف الشيء الكثير عن آرائه الدينية لو أن الأخبار الخاصة بحركة المبيضة (في الفارسية : سبيد جامكان) التي أوردتها البيروني (٣) ، ومحمد بن حسن بن سهل (٤) ، والمسعودي (٥) ، قد حفظت لنا . والنقطة التي تدور حولها دعوة المقنع ، تبعاً لما بقي لنا من أخبار عن الجانب الديني من هذه الحركة ، خصوصاً ما حفظه لنا النرشيخي (٦) (كتب حوالى سنة ٣٣٢) وابن خلكان (٧) ، هي ادعائه أنه أحد التجسيدات التي تتجسدها

(١) فرديناند كرسيتين باور ، « تاريخ الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى » ، الطبعة الثالثة ، تبنجن سنة ١٨٦٣) ص ٢٢٤ F. Chr. Baur, *Kirchengeschichte der drei ersten Jahrhunderte* .

(٢) يشير بهاء الله في البيان الذي كتبه « إلى علماء الآستانة وحكام العالم » إلى معجزة القمر التي أتى بها المقنع (« رسائل الشيخ الباي بهاء الله » ، ج ١ طبع روزن ، بطرسبرج سنة ١٩٠٨ ص ٦٥ س ٢٠ وما يليه) .

(٣) راجع تاريخه طبع سخاو ، ص ٢١١ .

(٤) راجع المسعودي ، « مروج الذهب » ج ٨ ص ١٤٠ .

(٥) الكتاب السابق ص ٣٣ .

(٦) « وصف جغرافي وتاريخي لمدينة بخارى » *Description topographique et historique de Boukhara* ؛ طبع النص الفارسي شارل شيفر Charles Schefer (باريس سنة ١٨٩٢) ص ٦٤ ، س ٣ من أسفل : « من آثم كه خود را بصورت آدم بخلاق نمود وباز بصورت نوح وباز بصورت ابراهيم وباز بصورت موسى وباز بصورت محمد وباز بصورت أبو مسلم وباز باين صورت كرمي بينيد » [وترجمتها : أنا ذلك الشخص الذي ظهرت ، حين الخلق ، في صورة آدم . ثم في صورة نوح ، ثم في صورة ابراهيم ، ثم في صورة موسى ، ثم في صورة محمد ، ثم في صورة أبي مسلم ، ثم في هذه الصورة التي أنا عليها] .

(٧) ابن خلكان برقم ٤٣١ ، راجع ل. ج. براون « تاريخ الفرس الأدبي » ج ١

ص ٣٢٠ E. G. Browne, *A Litterary History of Persia* .

الروح القدس على أدوار متكررة ، وأنه أحد الصور التي تجلّت فيها الروح القدس في آدم وجميع الأنبياء — وفي بعض الروايات ، والعلماء والحكماء أيضاً (١) — حتى أبي مسلم وأخيراً فيه هو نفسه . فكأنه إذاً ليس يختلف عن آدم ونوح وإبراهيم الخ ، بل هو قد فاق الصور السابقة عليه بأن الطبيعة الالهية لم تتجل فيهم كاملة كما تجلّت في آخر تجلياتها في صورة المقنع ، فهم قد تجلّت ، فيهم الطبيعة النفسانية بينما هو قد تجلّت فيه روحانية خالصة (٢) . وهو يبعث رسائل في هذا المعنى رواها النرشخي ، فليس بعجيب إذاً إذا كان الذي يروى لنا هذه الرسائل ، وهو سُنِّي (ونعني به ملخص أقواله الفارسي ، أي النرشخي) يقطع هذه التجديفات بقوله : « خاكش بدهان » أو « خ بردهان » [أي عليه اللدنة وترجمتها حرفياً : مَلْسَى فنه رغاما] (٣) .

وهذه النظرية عينها تظهر في مذهب الاسماعيلية بطريقة منطقية منظمّة . إلا أن الكلام فيه ليس عن تجسّد الروح القدس أو الله تجسّداً دورياً ، وإنما عن تجلّي العقل الكوني في أدوار على صورة الناطق متأثراً في ذلك بنظرية الصدور الأفلاطونية المحدثة ، وهذه نظرية وجدت أحدث تعبير عنها لدى باب ، فانه يقول عن نفسه « كنت في يوم نوح نوحاً ، وفي يوم إبراهيم إبراهيم ، وفي يوم موسى موسى ، وفي يوم عيسى عيسى ، وفي يوم محمد محمداً ، وفي يوم علي قبل نبيل علي ، ولأكون في يوم من يظهره الله من يظهره الله ، وفي يوم من يظهره من بعد من يظهره الله من يظهره من بعد من يظهره »

(١) ابن خلدون ، الموضع المذكور ، ج ٤ ص ١٣٦ س ٣ (فستقلد) : « ثم إلى سورة واحد واحد من العلماء والحكماء » .

(٢) النرشخي ، الموضع المذكور ص ٦٥ س ٢ : « إيشان نفساني بودند ومن روحاني ام » [وترجمتها : إن هؤلاء نفسانيون ، أما أنا فروحاني] .

(٣) الكتاب السابق ، ص ٦٤ ، س ٤ من أسفل ؛ ص ٦٥ ، س ٩ ؛ ص ٧١ ، س ٢ ؛ ص ٧٢ ، س ٢ ، وقارن فيما يختص بهذه الصيغة بحثي في « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ، المجلد ٤٢ ص ٥٨٩ .

الله ... إلى آخر الذي لا آخر له مثل أول الذي لا أول له . كنت في كل ظهور حجة الله على العالمين^(١) .

وطبيعي ألا يكون من الممكن أن تجد نظرية تجليات الروح النبوية بعد محمد تجليات متكررة مكاناً لها في داخل مذهب أهل السنة المسلمين ، ماداموا يؤمنون بالعقيدة القائلة بأن محمداً « خاتم الأنبياء » ، وهى العقيدة التى حاول المبتدعة فى زمن مبكر جداً أن يزعموها^(٢) . ولكن الصيغة المتواضعة لهذه النظرية والتى نجدها فى المواظظ المنسوبة إلى كليمانس ، والتى تقول بأن تجليات النبى توقف عند حد ونهاية أو سكون على حد تعبيرها (ἀνάπαυσις) يمكن أن تبيينها مشتتة فى كتب أهل السنة ، لأن هذه الصيغة يبدو أنها تلائم العقيدة القائلة بأن محمداً خاتم الأنبياء . فنحن نجد النظرية القائلة بأن محمداً هو نفس الأنبياء السابقين فى حديث أورده ابن سعد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، باعتباره كلاماً قاله النبى تفسيراً لقوله [تع] « وتقلبك فى الساجدين » : « قال (أى النبى) معناه من نبى إلى نبى ومن نبى إلى نبى حتى أخرجك نبياً » ، أى إذا كان فهمى له صحيحاً — أن الذى بُعث للناس نبى واحد ، عصره بعد عصر حتى ظهر أخيراً فى صورة محمد . ويدل على أن هذا هو معنى تلك النظرية التى تُروى فى سذاجة ، أن هذه النظرية مشار إليها فى القرآن فى قوله

(١) ا. ج. براون ، « ثبت ووصف ٢٧ مخطوطة بائية » ، « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » سنة ١٨٩٢ ، ص ٤٧٣ . وراجع أيضاً فيما يتعلق بكيفية فهم البهائية لكون الأنبياء نبياً واحداً ، بحث براون بعنوان « عام بين الفرس » (لندن سنة ١٨٩٣) ص ٣٩٩ *A Year amongst the Persians* .

(٢) وكان أبو منصور العجلي ، الذى صلبه الى السكوفة يوسف بن ممر سنة ١٢٠ هـ = ٧٣٨ م ، يقول بأن « الرسل لا تنقطع أبداً ، والرسالة لا تنقطع » . وكان سلفاً للاسماعيلية فى الالتجاء إلى التأويل الرمزى ، والقول بسقوط التكليف بالنسبة إلى من يؤمنون بالامام الحقيقى ، وكذلك فى أقوال ونظريات أخرى . وهو قد قال أيضاً بأن « أول ما خلق الله هو عيسى بن مريم وعلى بن أبى طالب » . راجع المهرستانى ص ١٣٦ ؛ والايحى — والجرجاني (طبعة استامبول سنة ١٢٣٩) ص ٦٢٥ .

« وتقلبك في الساجدين »^(١) (٢٦: ٢١٩) أى أنه نبى واحد يظهر جوهره في صور مختلفة كي تبشر المؤمنين في مختلف العصور^(٢).
ومن هذا نستطيع أن نحكم إلى أى حد كانت الأحاديث حتى القديمة منها نفسها قابلة للتأثر بسهولة بالأفكار الغنوصية .

ملحق

١ — خاص بصفحة ٢٢٠ تعليق رقم ٤ : يذكر الذهبي في كتابه في نقد رجال الحديث عن كتاب « العقل »^(٣) (بعد أن ذكر آراء احمد بن حنبل وغيره في مؤلف هذا الكتاب وتجريحهم له تجريحاً شديداً ، قال) : « عن الدارقطني قال : كتاب « العقل » وضعه ميسرة بن عبد ربه^(٤) ثم سرقة منه داود بن المحبر فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة^(٥) ؛ وسرقه عبد العزيز بن أبى رجاء ؛ ثم سرقة سليمان بن عيسى السنجري » وهكذا نجد عصاة من سراق التآليف إلا أن كلمة « سرق » في الاصطلاح الكتابي في الشرق ليس لها المعنى السيء الذى يرتبط في أذهاننا بمقابل هذه الكلمة في الألمانية . فالناس لا يتورعون

(١) لا يعرف الطبرى في « تفسيره » (ج ١٩ ص ٦٩) شيئاً عن هذا التفسير ؛ والفتخر الرازى يقول بهذا التفسير إلى جانب قوله بالتفسير الحرفى فيقول (ج ٦ ص ٥٤٨) : « ان الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد » .

(٢) ابن سعد ، القسم الأول ج ١ ص ٥ س ٩ وما يليه .

(٣) « ميزان الاعتدال » ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) واضع الأحاديث عن فضائل القرآن ، راجع كتابي « دراسات اسلامية » ج ٢ ص ١٥٦ س ١١ ؛ ولشدة ثبته وشراسته لقب بلقب الأكال .

(٥) وهذه طريقة ليس من النادر استخدامها من أجل خداع الناس بأن للمرء فضل تحصيل أحاديث النبي بمجهوداته الخاص : فيدعى المرء لنفسه ما حصله الآخرون من أحاديث بنصها أو مع بعض التغيير جاعلاً لها سنداً . فيذكرون عن ابراهيم الميصبي أنه « كان يسرق الحديث ، ويسويه » أى ويكيّفه تكييفاً خاصاً ؛ ويذكرون عن علي بن محمد الزهرى أنه « كان كذاباً ، سرقة » (أى الحديث) من ابن أبى علاج وجعل له إسناداً آخر . راجع صيغة الله المدراسى في حاشية على كتاب ابن حجر العسقلانى ، « القول المسدد » ص ٧٩ ص ٨ ؛ ص ٩٢ ، ص ٤ .

من أن يصفوا كبار الشعراء بهذا الوصف^(١). وواضح من الفصل المتعلق بالسرقات في كتاب «حماسة الخالدين» (بروكلين ج ١ ص ١٤٧) أن هذا اللفظ توسع في استعماله كثيراً حتى أصبح يشمل التلميذ أيضاً^(٢). ونرى شارح «النقائض» يقول عن جرير، الذي استعمل في إحدى قصائده (رقم ٦٥، البيت رقم ٣٤) لفظ «ازدهر»، إن هذه «كلمة نبطية سرقتها» (أي جرير) من كلام النبط^(٣). وهو يدلنا على أن هذه الكلمة (سرقة) لم تكن تستعمل دائماً بمعنى سبيهم. ويذكرون أن سليمان السنجري — وقد حكم عليه بأنه كذاب مصرح — ألف كتاباً في «تفضيل العقل». ومن بين الأحاديث التي وضعها يستحق الحديث التالي أن نورد: «إذا أتت على أمتي ثلاثمائة وثمانون سنة»^(٤) حلت لهم العزبة والترهب على رؤس الجبال، وهو حديث استخدمه الصوفية نأيداً لمنهم الأعلى في الحياة وسلوكهم (الرهبانية)، وهو المثل الأعلى الذي وردت أحاديث أخرى بزمه^(٥).

(١) راجع بحثي في «مجلة الجمعية الشرقية الألمانية»، المجلد رقم ٤٦ ص ٤٦ وما يليها.
(٢) ظهر في مجلة «المقتبس» المجلد رقم ٣، ص ٧٥١ وما يليها. وفي هذا الفصل يستعمل خصوصاً اللفظ أخذ، ولكن في ص ٧٥٢، س ١٠ من أسفل يرد: «طرائف السرقات».

(٣) «النقائض»، طبع بيثان ص ٦٩٠ س ١١.

(٤) «ميزان الاعتدال» ج ١ ص ٣٧٧.

(٥) وتوجد أقوال كثيرة ذاعت على صورة أحاديث، فيها تذكر حوادث محددة بتاريخ معين، مثل الحديث: «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة خرجت شياطين حبسهم سليمان بن داود في جزائر البحر فذهب منهم تسعة أعشارهم إلى العراق يجادلونهم بالقرآن وعشر بالشام» وهو حديث دفع إلى وضعه ما كان يسود ذلك العصر من مناظرات ومنازعات دينية؛ وكذلك مثل: «لو ربي أحدكم بعد السنين ومائة جرو كلب خير من أن يربي ولدا»، وفي هذا إشارة إلى انحطاط الحالة العامة وسوءها؛ أو مثل: «إذا كانت سنة خمسين ومائة فخير أولادكم البنات»، ولست أستطيع أن أسنتج إلى أي شيء تشير هذه النبوءة؛ وأحدث سنة يرد ذكرها هي السنة الواردة في الحديث التالي: «لا يولد بعد الستائة مولود ولله فيه حاجة». راجع هذه الأحاديث في كتاب التوقيعي «الاولؤ للرصوع» ص ٢٠ و ٦٥ و ص ١٠٢.
(٦) يورد «قوت القلوب» حديثاً تذكر فيه سنة مائتين باعتبارها السنة التي فيها ==

٢ — تعليق على ص ٢٢٦ . وقد زخرفت الشيعة هذه الأساطير بكثير من الأشياء المتغالى فيها ، تغالياً دعا المبتدلين من أئمة الشيعة إلى ذمها . فترى محمد بن محمد بن النعمان ، المشهور في كتب الشيعة باسم الشيخ المفيد (توفي سنة ٤١٣) ؛ راجع لوث ، فهرست كتب المكتب الهندي *Loth, Catalogue India Office* يجيب على سؤال ألقى إليه خاصاً بقيمة أمثال هذه الأساطير بما يلي : « إن الأخبار بذكر الأشباح تختلف ألفاظها وتباين معانيها ، وقد نبئت الغلاة عليها بأباطيل كثيرة ، وصنفوا فيها كتباً لغوا فيها وهزموا فيها أثبتوا منه في معانيها ، وأضافوا (بأجوبة) الكتب إلى جماعة من شيوخ أهل الحق ، وتحروصوا الباطل باضافتها إليهم ، من جعلتها كتاب [في نص المؤلف : الكتاب] سموه كتاب «الأشباح والأظلة» ، نسبوه في تأليفه إلى محمد بن سنان ولسنا نعلم صحة ماذكروه في هذا الباب عنه . وإن كان صحيحاً ، فإن ابن سنان قد طعن عليه وهو متهم بالغلو ، فإن صدقوا في إضافة هذا الكتاب إليه فهو ضلال ضال وإن كذبوا فقد تحملوا أوزار ذلك . وبعد ذلك يقدم لنا الرواية الصحيحة في نظره للأساطير المتعلقة بالأشباح النورانية . (أورده دلدار على في كتاب « مرآة العقول في علم الأصول » ، طبعة لكنوف سنة ١٣١٩ هـ ، ج ٢ ص ١٤٤) — عباس محمد بن الحسن بن سنان في النصف الأول من القرن الثالث ؛ قال عنه الطوسي في كتابه « فهرست كتب الشيعة » تحت رقم ٦٣٨ : « وقد طعن عليه وضعف » .

== يحدث هذا التحول ؛ راجع « مجلة تاريخ الأديان » المجلد رقم ٣٨ ص ٣١٤ . وقارن بهذا الحديث الذي أورده الغزالي في « الاحياء » ج ٢ س ٢١ : « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد » ، وفي كتاب « تحاف السادة » ج ٥ ص ٢٩١ روايات أخرى لهذا الحديث ، وملاحظات نقدية عليه .